Journal of Al-Quds Open University for Humanities & Social Studies - No (67) – July 2025
https: //journals.qou.edu/index.php/jrresstudy
E-ISSN: 2616-9843/ P-ISSN: 2616-9835

Muslim Ethics in Warfare: Salah Al-Din Al -Ayyubi as a Model (d. 589 AH / 1193 CE)

Prof. Ibrahim Hosni Sadiq Rabaya*
Professor, Ph.D., Modern History, Al-Quds Open University, Tulkarm Branch, Palestine.

Orcid No: 0009-0001-6585-4109
Email: irabayah@qou.edu

Received:
21/01/2025
Revised:
21/01/2025
Accepted:
11/03/2025

***Corresponding Author:**
irabayah@qou.edu

Citation: Rabaya, I. H. S. Muslim Ethics in Warfare: Salah Al-Din Al -Ayyubi as a Model (d. 589 AH / 1193 CE). Journal of Al-Quds Open University for Humanities and Social Studies, 7(67). https://doi.org/10.33977/0507-000-067-006

2024©jrresstudy. Graduate Studies & Scientific Research/Al-Quds Open University, Palestine, all rights reserved.

- **Open Access**

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International License.

Abstract

Objectives: This study addresses a topic that has been the subject of debate across various circles throughout history, extending to the present day: the ethical conduct of Muslims during their wars with their enemies.
This study relied on primary sources from Saladin's era and supplemented them with modern studies and perspectives on the topic.
Methodology: The analytical and descriptive historical method, with the aim of analyzing the moral values of Salah al-Din al-Ayyubi and their impact on the Crusades.
Results: The research concluded that Islamic principles include fundamental guidelines that emphasize respecting and preserving human dignity in all contexts, including warfare. These principles serve as a framework for Muslims in combat across all times and places. Additionally, it was evident that Saladin's approach to war was deeply rooted in Islamic doctrine, as he adhered to Islamic principles even when it may have put him or his fellow Muslims at a disadvantage.
Conclusion: It has become evident that the principles and core foundations of Islam are based on pillars that emphasize the respect and preservation of human dignity in general. The field of warfare serves as a clear testament to this. Salah al-Din (Saladin) was one of the prominent Muslim figures in this regard.
Keywords: Salah Al-Din, Muslim ethics, warfare, Crusaders

أخلاق المسلمين في الحروب

صلاح الدين الأيوبي أنموذجاً (ت589هـ/1193م)

أ. د. إبراهيم حسني صادق ربايعة*

أستاذ دكتور، التاريخ الحديث، جامعة القدس المفتوحة، فرع طولكرم، فلسطين.

الملخص

الأهداف: جاءت هذه الدراسة كي تتصدى لقضية كانت مدار جدل في الأوساط المختلفة خلال عصور طويلة حتى الوقت الحاضر، وهي المظاهر الأخلاقية عند المسلمين في حروبهم مع أعدائهم، ثم اختار المقال أن يعالج هذه القضية من خلال شخصية صلاح الدين الأيوبي كنموذج يحاكي الحقيقة التاريخية عن كثب .
لقد اعتمدت هذه الدراسة في معالجة هذه المشكلة على مصادر عميقة وقريبة من عصر صلاح الدين، ومن ثم تعزيزها بالدراسات الحديثة والآراء المحدثة التي تناولت هذا الموضوع.
المنهجية: المنهج التاريخي التحليلي والوصفي، بهدف تحليل القيم الأخلاقية لصلاح الدين الأيوبي وتأثيرها على الحروب الصليبية.
النتائج: توصلت هذه الدراسة إلى نتائج عديدة كان عنوانها العريض أنه جاء في مبادئ الإسلام قواعد رئيسة أساسها احترام الكرامة الإنسانية وحفظها بشكل عام، وكانت الحروب وسياقاتها لها نصيب من ذلك، حيث المبادئ والمعايير الواضحة؛ لتكون منهاجا للمسلمين في حروبهم في كل زمان ومكان، وظهر أيضا بأن صلاح الدين كان مصدره في حروبه عقيدة الإسلام، فقد ثبت بشكل واضح أنه التزم إلى حد بعيد في مبادئ الإسلام في الحروب حتى لو كان فيه جور عليه أو على المسلمين.
الخلاصة: لقد ظهر بأن مبادئ الإسلام وقواعده الرئيسة قائمة على دعائم عمادها احترام الكرامة الإنسانية وحفظها بشكل عام، وأن ميدان الحروب خير دليل على ذلك، وصلاح الدين كان أحد اعلام المسلمين في هذا المجال.
الكلمات المفتاحية: صلاح الدين الأيوبي، أخلاق المسلمين، حرب، الصليبيين.

المقدمة

جاءت هذه الدراسة كي تتصدى لقضية كانت مدار جدل في الأوساط المختلفة خلال عصور طويلة حتى الوقت الحاضر، وهي المظاهر الأخلاقية عند المسلمين في حروبهم مع اعدائهم، ثم اختار المقال أن يعالج هذه القضية من خلال شخصية صلاح الدين الأيوبي كنموذج يحاكي الحقيقة التاريخية عن كثب، فقد كان صلاح الدين أكثر قائد مسلم خاض المعارك بنفسه مع اعدائه اثناء الحروب الصليبية، التي تُعد من أعظم الملاحم الحربية على الاطلاق، ثم برزت شخصيته من خلال ذلك على أنه أحد أهم اعلام التاريخ الحربي على المستويين المحلي والعالمي .

تُعدّ معالجة قضايا المبادئ الأخلاقية والإنسانية في عقيدة المسلمين من خلال مسيرة صلاح الدين أفضل وسيلة يمكن أن تبرهن وتدلل أو تكشف بموضوعية عن مدى التزام المسلمين في حروبهم بالنصوص الدينية، لأنها من أهم الحروب وأوسعها في تاريخ العصور الوسطى، ومن ثم الخروج بنتائج تظهر مستوى حضور هذ المبادئ في المواقف الحربية الصلاحية ثم عرضها على الملأ دون تردد أو حرج من أحد.

لقد اعتمدت هذه الدراسة في معالجة هذه المشكلة على مصادر عميقة وقريبة من عصر صلاح الدين ومن ثم تعزيزها بالدراسات الحديثة والآراء المحدثة التي تناولت هذا الموضوع.

أهمية الدّراسة:

تتجلى أهمية دراسة أخلاق المسلمين في الحروب من خلال سيرة صلاح الدين الأيوبي (589هـ/1193م) في عدة جوانب رئيسة:

- أولاً، يُعد صلاح الدين نموذجًا للتسامح والقيم الإسلامية، حيث أظهر الرحمة حتى في أوقات الصراع، مما يعزز الفهم الصحيح لثقافة الحرب والسلام في الإسلام.
- ثانيًا، تُسلط الدراسة الضوء على قيادته الكاريزمية، التي جمعت بين الشجاعة العسكرية والقدرة على التحالف والتعامل النبيل مع الخصوم، مما يوفر دروسًا قيمة في فن القيادة للمجالات العسكرية والإدارية.

يتناول النص الإلهام المعاصر للسلام، وحل النزاعات من خلال نموذج صلاح الدين، الذي التزم بالأخلاقيات النبيلة حتى مع أعدائه، مما يجعله مثالًا يحتذى به في إدارة الصراعات الحديثة. كما يبرز تأثيره الإيجابي على العلاقات الإسلامية–المسيحية، حيث تميزت علاقاته مع قادة الحملة الصليبية بالحزم والاحترام، مما ساهم في تخفيف التوترات.

أخيرًا، يُعتبر صلاح الدين رمزًا للبطولة والفضيلة في التاريخ الإسلامي، ودراسة أخلاقه يمكن أن تعزز الهوية الإسلامية، وتعيد إحياء القيم الإنسانية العالمية في الوعي المعاصر. وتقدم دراسة أخلاق صلاح الدين الأيوبي في الحرب رؤية شاملة تتجاوز تحليل الأحداث التاريخية، حيث تسلط الضوء على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية والثقافية، مما يعزز الفهم العميق لدوره ومساهماته في تاريخ الإسلام والعالم.

مشكلة الدراسة:

تتناول مشكلة الدراسة أهمية تحليل الأخلاق العسكرية لصلاح الدين الأيوبي وتأثيرها على الحروب الصليبية حتى عام 589هـ/1193م. ويُعتبر صلاح الدين نموذجًا فريدًا لقائد عسكري التزم بالقيم الإسلامية، مما يثير تساؤلات حول تأثير هذه الأخلاقيات على نتائج الحروب وصورة المسلمين في العالم المسيحي:

- ما هي المبادئ الأخلاقية التي تميز بها صلاح الدين في التعامل مع الأعداء والحلفاء؟
- كيف أسهمت أخلاقيات صلاح الدين في تغيير مجريات الحرب، وتعزيز صورته كقائد شجاع وعادل؟
- ما تأثير هذه القيم على العلاقات الإسلامية–المسيحية في ذلك الوقت؟

أهداف الدّراسة:

تهدف الدراسة إلى فهم الأبعاد الأخلاقية في شخصية القائد صلاح الدين الأيوبي وتأثيرها في الحروب الصليبية. ومن الأهداف الرئيسة للدراسة:

1. استعراض القيم الأخلاقية التي تبناها صلاح الدين في تعامله مع الأعداء والحلفاء، مثل التسامح والشجاعة والإحسان.

2. دراسة كيف ساهمت القيم الأخلاقية في تعزيز قيادة صلاح الدين، وتوحيد الصفوف، وإدارة التحالفات، وتجنب النزاعات الداخلية ؟
3. دراسة أثر أخلاق صلاح الدين على العلاقات الإسلامية–المسيحية: توضيح كيف أثرت أخلاقيات صلاح الدين على نظرة العالم المسيحي للمسلمين ؟ وتعزيز الاحترام المتبادل رغم العداء العسكري.
4. تسليط الضوء على دور الأخلاق في تحقيق الانتصارات، وتأثيرها على مجريات الحرب ونتائجها، ثم كيفية كسب تعاطف الخصوم، وتعزيز السلام بعد النزاع.
5. إبراز أهمية الأخلاق في إدارة النزاعات المعاصرة، مستلهمًا من أخلاقيات صلاح الدين كنموذج للقيادة الأخلاقية.

منهج الدراسة:

يعتمد منهج الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي، بهدف تحليل القيم الأخلاقية لصلاح الدين الأيوبي، وتأثيرها على الحروب الصليبية. ويتضمن ذلك:

1. المنهج التاريخي: دراسة الأحداث المتعلقة بصلاح الدين من خلال المصادر التاريخية المعاصرة له، مثل كتابات المؤرخين المسلمين والمسيحيين.
2. المنهج التحليلي: فهم القيم الأخلاقية لصلاح الدين، وتأثيرها على الحروب، من خلال تحليل مواقفه مثل التسامح مع الخصوم والإحسان للأسرى.
3. المنهج الوصفي: وصف وتحليل العلاقات الإسلامية–المسيحية في تلك الفترة، وكيف ساهمت أخلاق صلاح الدين في تحسين هذه العلاقات رغم الظروف العدائية؟

الدراسات السابقة:

لا يوجد دراسات تناولت هذا الموضوع بشكل منفرد إنما ظهر في بعض الأحيان دراسات تدور في فلك شخصية صلاح الدين لتعالج جوانب عديدة ومتنوعة، منها: (أبو محسن،2013) (العويس،2020) (مرزوك وإبراهيم،2023).

الفصل الأول:

المعايير الأخلاقية في حروب المسلمين

إذا كان السِّلم والسّلام من اشتقاقات الإسلام وأحد معانيه، فلا بدّ أن تكون قواعده ذات دلالات راسخة في عقيدة المسلمين، وبالتالي كان السلام بصفة عامة أساسا للعلاقات الخاصة والعامة التي شرعها الله تعالى لبني آدم، كما أن غاية أي عمل أو حركة هو تحقيق ذلك، وهذا يدفعنا للقول بأن الإسلام فرض على المسلمين محاربة الأعداء وفق قواعد وشروط محددة وواضحة تحتمل هذه المعاني، مع التنويه أن الحرب في حقيقتها ليست غاية بذاتها، إنما وسيلة يسلكها المسلمون لتحقيق غايات أسمى.

في ضوء ذلك، لم يترك الإسلام الحرب هكذا دون قيود أو دستور، إنما وضع لها ضوابط ومعايير تُقوّم علاقة المسلمين في حروبهم مع أعدائهم، وتجعل منها ظواهر أخلاقية إنسانية أكثر من كونها قتل وتدمير وتخريب كما هو معروف في جميع الحروب التي مرت على البشرية.

من هنا، جاءت هذه الدراسة للإحاطة بالأخلاق والقواعد التي سار عليها المسلمون في أعمالهم الحربية وعلاقاتهم مع أعدائهم عبر تاريخهم الطويل، وقبل خوض غمار الموضوع الرئيس لابد أن نكشف عن محاذير وضعتها دولة الإسلام، وينبغي تجنبها وعدم الخوض بها في ميادين القتال، قوامها حفظ الأنفس وصونها وفق دستور سليم، مستلهمين تلك السياسة من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلام، ومن هذه المحاذير:

1. حفظ كبار السّن والنساء والأطفال:

جاء في كتب السّير والتراجم أخبار كثيرة تشير بشكل قاطع إلى عدم اطلاق يد العساكر على الفئات الاجتماعية من غير المقاتلة، وفي مقدمتهم كبار السّن والنساء والأطفال، وما وافقهم أو سار في طبقتهم، ومن الإجراءات العملية حيال ذلك ما كان صدر عن النبي – صلى الله عليه وسلام– والصحابة الراشدين، حيث كانت أعمالهم خير دليل وأكبر شاهد على سيرهم في تطبيق قواعد الإسلام على أكمل وجه، فكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إذا اعد العدة لغزوة على الأعداء وضع في أذن قائد الجيش كلمات لا بد من تنفيذها والتقيد بها، ومنها التقوى، وهي كلمة لو قالها وحدها لكفت، فبها تصلح حياة الناس وتستقيم، فمن يتقي

الله يتمنطق بسلاح الأخلاق السليمة، وينزع عنه ما يفسد أمور دنياه وآخرته، إذ إن أكثر ما يؤكد عليه صلى الله عليه وسلم عدم قتل الأطفال والشيوخ والنساء (ابن هشام،1995،ج2، 251).

فقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لجنده عند الإغارة:" اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا" (النيسابوري،1991م ج3، 1356).

2. عدم الغدر:

تُعد خِصلة الغدر من الأمور الرذيلة التي إن فعلها الشخص أصبح عديم المروءة والشهامة، وليست من الرجولة في شيء، وعندما نتحدث عن مواجهة الرجال بعضهم بعضا، فالغدر حالة مرفوضة في المجتمع الإسلامي تماما لما لها من دور في نسف العلاقات الاجتماعية، وهدم النسيج الأخلاقي، الذي حرص الإسلام على بنائه بين المسلمين، على قاعدة الأخوة، ومن باب التشديد على تركها، وعدم الخوض بها، ومحاربة من يفعلها، وجعلها الإسلام محرمة حتى في حرب الأعداء، فالأصل في الإسلام هو سبيل واحد لا يتغير ولا يتبدل، وتركها في حربهم مع الأعداء حتى لا يعتاد المسلم على فعلها، ثم يستسهل أمرها مع الصديق والعدو، وهناك مواقف عديدة من السيرة ومن الصحابة تدلل على تركه هذه الصفة حتى أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– أبرأ ذمته من الذين يفعلون ذلك، فقال:" من أمّن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً" (الألباني، 6103).

إلى ذلك، فقد ترعرعت هذه القيمة في نفوس المسلمين لاحقا، فكان الوفاء صفة حميدة سلكوها في حربهم مع الأعداء حتى أن الأعداء فعلوا ما يحقق لهم الأمن إذا وقعوا أسرى؛ لعلمهم أن المسلمين أصحاب وفاء، وكلمة في أفعالهم وأقوالهم، ومن ذلك إذا قال له المسلم لا تخف، أصبح آمنا، حتى إذا طلب الكافر ماء فأدركه إياه المسلم يصبح آمناً، وكان بعضهم يطلب الماء مباشرة بعد وقوعه بيد المسلمين حتى لا ينفذ عليهم أمرا آخر، وهذا يفيد بأن أي فعل أو قول حسن يصدر عن المسلم للكافر أو للمحارب فهذا يفيد الأمن والأمان والصدق والوفاء .

3. الرهبنة والتعبد:

هم رجال الدين ممن لا يحملون السلاح فهم أيضا مرفوع عنهم السيف، وليسوا من ضمن المستهدفين بقتلهم أو قتالهم، حيث أشرنا سابقا لذلك لما قاله الرسول –صلى الله عليه وسلم– لجيشه، ثم سلك هذه الطريق الصحابة فهذا أبو بكر الصديق كان قد قال ليزيد بن أبي سفيان عندما خرج للقتال في الشام:" إنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعهم وما يزعمون" أي دعهم فيما هم فيه يتنافسون، اترك جدالهم ولا تعتدي عليهم ماديا ومعنويا (الواقدي، 1997، 21).

4. حفظ البيئة المادية:

هذا النظام البيئي بعيد كل البعد عن الهدف الذي خرج ويخرج من أجله المسلمون في حروبهم، إذ لا حاجة للإسلام ببيئة المحارب في جزئية الهدم والحرق والتقتيل الذي لا فائدة منه في ميدان الحرب، أما إذا كان الحريق في بيئة ما تتعلق بتحقيق تقدم عسكري فلا ضير في ذلك، ومنها ما حصل في معركة حطين عندما أشعل المسلمون النار في الأعشاب المحيطة في جموع الأعداء فكانت سببا قويا في تحقيق بواعث النصر(الهندي، 1981، 478). قال تعالى: "وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"(القصص، 77).

لقد كان ذلك هو هدي الإسلام القويم في حفظ الماديات والملكيات في الحروب، وهذا يدعونا للتفكر كيف كان موقف غيرهم من الشعوب في حروبهم، فعندما نتحدث عن المغول وحرقهم بغداد(المقريزي، 1997، 428) والصليبيين وتدمير القدس الشريف عام 1099م(الصوري، 1991، 127)، حتى أن صفة التخريب للبيئة المحيطة بالناس باتت هدفا قويا، ووسيلة حرب رئيسة عند الدول في الوقت الحاضر(العسقلاني،1389هـ، ج12، 118)، فبدل أن تضغط على المحاربين تقوم بالضغط على بيئاتهم ظنا منهم بأنها الطريق الأقرب لتحقيق النصر، وهذا ما كان ليصدر عن هذه الأقوام إلا لقناعتهم بأن القِيم الإنسانية والأخلاقية لا مكان لها في أعراف الحروب، ومنهم من قال: الحرب لا دين لها، ولا أخلاق (شبير،2004م).

وقد نظمت في مثل ذلك:

البعضُ يَرَ الحربَ خرابا وآخرُ في الحرب يُعمّر. (الكامل)

5. حقوق الأسير:

بات معلوما أن العدو الذي تجب محاربته في الإسلام من يحمل سلاحا، فإن غادره أو ألقاه سقط عنه مشروعية القتال، وأصبح في حالة من الضعف المادي والمعنوي ما لا يقوى على فعل شيء، فقد وضع الإسلام دستورا واضحا لمعاملة الأسرى، أساسه حقه كإنسان، أي لا يصح نزع إنسانيته عنه، بمعنى معاملته كحيوان، كما هو الحال مع كثير من الدول التي ارتكبت مثل هذه الجرائم في التاريخ الحديث والمعاصر، وهي تدعي أنها راعية الحرية وحقوق الإنسان، فقد حرص المسلمون في جميع حركاتهم على حفظ حاجات الأسير الأساسية وتوفيرها من مأكل ومشرب وملبس، حتى أنه جاء في المصادر خبر بعضهم أنه أطلق سراح أسرى كُثر بعد أن وجد أنه لا يستطيع كفايتهم المؤونة والشراب، وهذا ليس بغريب على المسلمين، فإذا كان ذلك ملزماً به المسلم مع الحيوان، فإن الإنسان أحق بذلك احتراما لإنسانيته من حيث وحدة المنشأ والتكوين. قال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾(سورة الإنسان،8).

6. التمثيل بالميت:

موضوع التنكيل هو أمر مذموم قطعاً في الإسلام، إذ ما يجنيه الإسلام والمسلمون من التنكيل والتمثيل بمن يصرع من الأعداء في ميدان المعركة، فأمر حفظ إنسانية الإنسان قائم في كل الحالات لا يتبدل، فبعد زوال صفة الرجل كمحارب يصبح إنسانا خلقه الله وأحسن خلقه، ولعل هذا النهي جاء من باب حفظ الطبيعة الإنسانية، وعدم الغلظة غير المحسوبة في حربهم مع الأعداء المورثة لسلوك ربما يتغلغل في نفوس المسلمين، ويصبح صفة فيهم يفعلونها فيما بينهم، حتى يصل إلى فساد المجتمع الإسلامي. وجاء عن عبد الله بن زيد – رضي الله– أنه قال: "نَهَى النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم– عَنِ النُّهْبَى، وَالمُثْلَةِ" (العسقلاني،1389هـ، 2474)

نخلص إلى أن ما ورد من قواعد وأسس في تعامل المسلمين مع الأعداء في وقت الحرب في البعد الإنساني والأخلاقي كان لتحقيق أهداف، منها:

- بث تعاليم الإسلام حتى عند قرع السيوف، فالمقاتل وهو يقاتل يفكر أن المسلمين معاملتهم له حسنة إذا ما وضع السلاح، لعلمه أنه يقاتله لا لحسب أو نسب وإنما لنشر دين الإسلام، وبالتالي كثير من أعداء المسلمين وضعوا السلاح وأسلموا بفعل هذه السياسة التي اتخذت مكارم الخلاق وحسن المعاملة وسيلة لتحقيق الأهداف بأقصر الطرق وأقل الخسائر.
- تحقيق القيّم المثلى وترسيخها في نفوس المسلمين في سرحاتهم وغدواتهم، ثم إن قيمة الفضيلة تترك آثارا عميقة في المجتمع الإسلامي، ما يزيد في ترابطه وتماسكه وتجعل منه مثالا يحتذى في كل زمان ومكان.

الفصل الثاني:

- **شخصية صلاح الدين الأيوبي:**

هو الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي، أحد أعلام التاريخ في العصور الوسطى، شخصية لا يشق لها غبار في أمور عديدة، فالشهرة التي لازمته–حيا وميتا– لم تقتصر على استراتيجياته الحربية فحسب، بل كانت إنسانية الإنسان ماثلة فيه وملازمة له في جميع أحواله، حتى تناولها الكتّاب في مدوناتهم، وأمعنوا في وصفها ثم طغت شهرته في هذا المجال على أمثاله من القادة والملوك في كل زمان ومكان.

ومن أجل تحقيق أهداف الدراسة لا بدّ من كتابة وصفٍ مختصرٍ لمسيرة صلاح الدين في حربه مع الأعداء، لقد بدأ مشواره كفارس في جيش نور الدين زنكي في حدود عام1165م، إذ بدت عليه علامات القائد الفذ الذي تكمن فيه خصالا متنوعة ما اجتمعت في نفسٍ إلا كان النجاح والشهرة حليفها.

كان أول ظهور له في المشهد الحربي عندما شارك في الحملة النورية الأولى إلى مصر، وهناك بدأ يلمع نجمه ويحقق الانتصارات على الدولة الفاطمية، وما أن توفي نور الدين زنكي حتى أصبح القائد الأول في جيش المسلمين بلا منازع، فتولى السلطنة، ثم بدأ في استكمال مشروعه في إجلاء الصليبيين من الشرق الإسلامي وأول عمل قام به توحيد الجبهة الإسلامي ولملمت جراحاتها، ورصّ صفوفها وإحياء فلسفتها الجهادية وشحذ الروح المعنوية من جديد.

لقد كانت تلك الأعمال تمهيدا عمليا للوصول إلى معركة حطين (1187م) حيث المعركة الفاصلة في الصراع الإسلامي الصليبي، أفضت في نهاية الأمر إلى نصر المسلمين نصرا مؤزرا، وهو نصر كان المسلمون بأمس الحاجة إليه، بعد أن ظنّ البعض أن لا طاقة للمسلمين في مواجهة الصليبيين، ها هم عادوا بنصر ثمين كسروا به حاجز الخوف والرعب الذي لاحق المسلمين لبضعة

عقود، بينما كانت هزيمة الصليبيين وأوروبا مدوية، عظمت في نفوسهم حتى أنهم شرعوا في إعداد الحملة الصليبية الثالثة لرد الاعتبار لأنفسهم (Stevenson,1968 . P. 248) (ابن الأثير،2006، ج10، 146).

ثم بدأ صلاح الدين في السيطرة على المناطق المحيطة مستغلا فرصة الإرباك الذي حصل في المعسكر الصليبي وحتى لا تعيق تقدمه في تحقيق هدفه الأول فتح القدس، ثم انطلق كسهم ثاقب صوب القدس الشريف، وحاصرها في (15رجب583هـ/20ايلول1187م)، وبدأ بوضع خطة قوية تضمن له تحرير المدينة بأسرع وقت وأقل خسارة (ابن شداد،2017، 63).

وعندما شعر الصليبيون أن لا مفرّ من التسليم قرروا أن يرسلوا ممثلا عنهم لعرض الصلح على صلاح الدين، فذهب القائد الصليبي "باليان دي إبلين"، وقد سلّم شروطه لصلاح الدين، عرفت لاحقا بشروط باليان، جاء فيها: إعطاء مَن في المدينة من الصليبيين الأمان على أنفسهم والسماح لمن يرغب بالمغادرة أن يغادرها (Runciman ,1968, 464).

لكن صلاح الدين رفض ذلك وطلب من "باليان" الاستسلام، فامتنع، وقال أنهم سوف يحرقوا المدينة بمّن فيها ثم يقتلوا أنفسهم، عند ذلك وافق صلاح الدين على الصلح ، وفضل أن يأخذ المدينة ويحفظها وأن لا يبني استراتيجيته على ردود الأفعال. ومن شروط الصلح أن يدفع "باليان" عشرة دنانير عن كل رجل، وخمسة عن كل امرأة، ودينار عن كل طفل، وإعطاء الصليبيين مدة 40 يوما لتنفيذ هذا الشرط. (ابن الأثير، 2006، ج10، 156) (كرد، 1925، 61)

ثم واصل صلاح الدين استكمال مشروعه بالقضاء على باقي الإمارات الصليبية في ساحل الشام، وقد سيطر عليها جميعها من غزة جنوباً حتى أنطاكيا شمالاً، باستثناء بعض المواقع، مثل: طرابلس وصور التي أصبحت معاقل للصليبيين في الشام ومركزاً لإحياء المشروع الصليبي من جديد، وفي هذا الوقت وصلت الحملة الصليبية إلى الشرق بقيادة ملوك أوروبا يتقدمها ملك إنجلترا ريتشارد قلب الأسد، وكان خيارهم محاصرة عكا وإخراج المسلمين منها، وهناك كانت إعادة المواجهة من جديد بين الشرق والغرب التي استمرت فترة طويلة عرفت لاحقا بأنها من أشهر الملاحم التي عرفها التاريخ، وفي نهاية المشهد هُزم المسلمون ثم سار الجيش الصليبي نحو الجنوب قاصدا استرداد الساحل الجنوبي لبلاد الشام من حيفا حتى عسقلان فغزة، وهذا التحرك رافقه حرب استنزاف ووقعات كبيرة بينهم انتهت بعقد الصلح بين الطرفين عرف بصلح الرملة سنة 1192م، وبذلك فشلت الحملة الصليبية الثالثة في تحقيق هدفها الرئيس المتمثل في استرداد القدس الشريف (عاشور،1963 ،889).

في ضوء ذلك، جاءت هذه الدراسة كي تتصدى لهذه القضية، وتكشف اللثام عمّا رصدته المصادر القريبة من عصر صلاح الدين من أخبار يمكن أن توزن بميزان الإسلام من حيث القيم الإنسانية والأخلاقية التي نمت في شخص صلاح الدين، وطبقها في علاقته مع أعدائه آنذاك.

ترغب هذه الدراسة في معالجة هذا الموضوع، وتحليل مكنونه على النحو الآتي:

1. كبار السّن والنساء والأطفال:

فقد وردت عديد من الأخبار والروايات التي تفيد حفظ هذه الشريحة الاجتماعية التي ليس لها شأن في القتال، وإن كانت من جملة المعسكر الصليبي، إذ إن أسباب الحرب تبقى قائمة مع مَن يحدثها أو يوقد جذوتها في وجه المسلمين، أما الشيوخ والأطفال والنساء فقد رفع عنهم السيف، وليس لهم بهم حاجة، لا بل كان بهم رحمة وعطف على الصليبيين عندما فتحوا القدس، حتى أنه شاع الخبر في مدينة القدس بأن الملك صلاح الدين سَيفرج عن العجائز والنساء والأطفال (عطية،2010، 210).

فقد ظهر موقفه الإنساني أيضا مع النساء من طائفة الصليبيين في بيت المقدس عندما فتحها عليهم، فقد استقبل طائفة منهنّ وقرر سماع مطالبهنّ، المتمثل في أن يفرج صلاح الدين أو يطلق ما بقي لهنّ من أقارب من كبار السّن بعد أن مات الشباب في المعارك السابقة، وبقي الشيّاب، عند ذلك نزل صلاح الدين عند رغبتهنّ، وأحسن لهنّ ولذويهنّ من كبار السن، ومنحهم الهدايا التي يستعينون بها في سفرهم الموعود، ثم أطلقوا لترتيب أمورهم وحزم أمتعتهم استعدادا للرحيل مع الطوائف الصليبية التي باتت على وشك الأفول من القدس دون رجوع (Runciman ,1968, 466).

وظهر أنه كان يتعامل مع النساء على قدم المساواة، ولم يؤخذ أحد بجريرة قرينه، ومن ذلك عندما استجاب لطلب زوجات الملوك ومنهنّ زوجة أرناط الذي قتل في حطين، فقد أطلقها ثم طلبت تحرير ولدها فأجابها لطلبها إذا تحقق تسليم قلعة الكرك (ابن الأثير2006، ج10، 157)

كما وردت حادثة تفيد هذا المعنى أثناء الحرب إذ جاءت إلى صلاح الدين امرأة من المعسكر الصليبي، وهي في حالة رثّة عليها ملامح الضعف والتعب، سُئلت عن حاجتها، فقالت: بأن لها ضالة تريد أن تنشدها أمام صلاح الدين، وقد كان لها ذلك، ثم قالت: أن لها طفلة –هناك رواية تقول طفل– سرقت، فأرشدها من معها أن تتوجه لصلاح الدين فهو الوحيد الذي يمكن أن يردها، الذي لا يظلم عنده أحد، عند ذلك أرسل صلاح الدين العيون ليبحثوا عنها، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أحضرت الطفلة، وألقيت في حضن أمها، فكانت فرحة لا يساورها فرحة عندما نتحدث عن رحمة الأم بولدها، حتى أن الحضور تأثروا بذلك الموقف، هذه النوادر والمحاسن ذات الطابع الإنساني يضرب بها الأمثال على قاعدة أن الحلم سيد الأحكام.(ابن شداد،2017، 111).

2. الحزم والعفو والتسامح والمروءة:

جاءت معالجة هذه المفاهيم في عنوان مشترك ذلك أن ذكر مفهوم منها يعني جواب للآخر، فأحيانا تكون مرادفة لبعضها بعضا أو مغايرة ومجانبة في أحيان أخرى، وفي بعض الأحيان تفيد المعاني مجتمعة، فمن المفيد ذكرها على هذا الشكل حتى تتحقق أهداف الدراسة على أكمل وجه، فعندما يتسامح يكون عفوا في أفعاله، وحازما في تنفيذها غير متردد، ومروءته تمنعه من الإفساد وعدم الإيفاء بما قطع من عهود.

فالحزم يأتي بمعنى الإرادة القاطعة التي تَصدر من قول أو فعل، وحاسمة للأمر دون تردد، والحزم هنا لا يذهب بعيدا حد القهر أو المغالاة فيه، أي أن الحزم مجانبا للاستبداد والتسلط، وهو أقرب إلى الوقار والهيبة منها إلى الجبروت والظلم، فهذا صلاح الدين قَضى حياتَه حازمًا أَمرَه على الجهاد، وهو من أَشجع الناس وأَقواهم بَدنًا مع ما كان يعتَري جسمَه مِنَ الأَمراض والأَسقام، ولا سيَّما وهو مرابطٌ مصابر (الجرجاني،2002).

ولا بدّ من الإشارة إلى ما ورد من كتابات حول هذا الموضوع ممن حاولوا تشويه هذه الصورة ، فقد ذكر "عبد الرحمن عزّام" عَنْ شخصيَّته، فيَقول: "هل هو صلاح الذي يَكتب عنه المؤرّخ "جب" في لَحظة وجيزة وحاسمة، وبطيبة خالصة، وثباتِ الشَّخصية، رفع الإسلامَ بعيدًا عن مستَنقَعِ الانْحطاطِ الخُلُقي" أم أنه صلاح الدِّين الذي يجِبُ أن تُنسَب أهم إنجازاتِه التاريخية بحسب تعبير "إهرينكروتز" إلى اضطهاده لخصومه السياسيّين وإعدامهم وإلى نزعته الحربيّة الشَّرسة وإلى انتهازيته المحسوبة، واستعداده للمساومة على المبادئ الدينيّة لاستغلال الظروف السياسيّة"(عزام،2013، 124).

إن هذا القول تَعدٍ واضح على الأبجديات التاريخيّة التي اصْطَلَح عليها أصحاب الرأي، فكان الأفضل " بإهرينكروتز" أن يكون موضوعيًّا محايدا فيما يطرح ويتناول، فصلاح الدين لم يقتحم عليهم باريس وروما، ولم يَغْزُهُم فيما هو فيه يتفاخرون، فلا يَجوز أنْ يفَسَّر حَزمُه بما لَقيَه الصليبيّون في الشرق بأنه ضرب من فساد البلاد والأنفس، كان المسلمون يعيشون آمنون في أوطانهم، حتى جاء الصليبيون فشتتوا شملهم، وفرقوا جمعهم، وجعلوا أعزة الديار أراذل، وما ظهور صلاح الدين وصحبه ومن ثم حزمه إلا ردٍ للعدوان ووقف الطغيان، ولجمٍ من أفسدوا على المسلمين مكانهم وزمانهم(عزام،2013، 126).

إن هذه الأخلاق الراسخة المستوحاة من عقيدة الإسلام السمحة كانت النور الذي أرشد صلاح الدين إلى جادّة الصواب، حتى باتت أنموذجا يحتذى به في كل زمان ومكان، ولعله من المفيد ذكر محاسن هذا القائد وخصاله السّنية بأنها لم تقف عند هذا الحد فحسب بل تجاوزها إلى ما هو أعمق وأبعد أثرا في النفوس، ومن أمثلة ذلك أنه بعد أن دخل المدينة في الليلة التي وافقت ليلة الإسراء والمعراج وهي 27رجب583هـ/2اكتوبر1187م أن أطلق يد صحبه في عرض العفو عن طوائف عديدة من الصليبيين، فمنهم من توسط للعبيد، ثم أخيه العادل طلب العفو عن الآلاف من الأسرى، ولا ننسى ذكر أنه أطلق أقارب النساء اللواتي قدِمن إليه يتوسلن إطلاق من بقي لهنّ من ذويهنّ (الأصفهاني،2004 ، 73).

لقد تحدث عن هذه المعاملة الحسنة كتاب الحروب الصليبية من شرق البلاد وغربها، حتى أن القارئ لكتاباتهم يشعر أنه يقرأ لمؤرخ من معسكر المسلمين، لكن الموضوعية تقتضي ذلك، وهي قول الحقيقة بعينها التي لا مجال لتحريفها أو التلاعب في مخرجاتها، وهذا يدفعنا إلى القول إن بعض الكتاب قارن بين ما وقع في المدينة من خراب وتدمير وقتل وتهجير إبان الاحتلال الصليبي للقدس عام1099م، وبين ما وقع عندما جاء صلاح الدين محررا، وهو يحمل قيما وأخلاقاً لم يعهدها الصليبيون من قبل(Runciman,1968, 466)(كرد، 1925، 70).

لقد كان لسياسة إيفاء العهود والعفو والتسامح نتائج مغايرة تماما لما كان يرنو له صلاح الدين وصحبه مِمّن وافق رأيهم رأيه، ومنها: أن مّن تم العفو عنهم، وأطلق سراحهم توجهوا إلى مدينة صور التي أصبحت قاعدة الصليبيين المتقدمة في ساحل الشام،

فوضعوا كل ما معهم تحت تصرف حاكم المدينة؛ لتوظيفه في تحصينها والصمود في وجه صلاح الدين، حتى أفشلوا حصار صلاح الدين لها، فكانت أول خسارة مُنِي بها بعد حطين، وفي هذا المقام هاجم بعض الكتّاب هذه السياسة بقولهم: كان يجب أن يكون أكثر حزما في التعامل مع الأعداء، إذ لا مفر من الحزم مع العدو إلا إليه، حتى ابن شداد قال: "كان وصول قائد صليبي عبر البحر إلى صور، وإطلاق الإفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان (صلح القدس) وحملهم إلى صور؛ من أعظم أسباب الضرر الذي حصل حتى تراجعت عكا وقوي الإفرنج بذلك" (ابن شداد،2017، 216)(ابن الأثير،2006،ج10، 180).

رواية ابن شداد تحمل معاني عدة خاصة أنه انتقاد لم يصدر عن شخص عارض أو متطفل بل صدر عن قاضٍ له رأيه ومكانته في معسكر صلاح الدين، والذي كان يتبوأ منصب قاضي عسكر صلاح الدين ومرافقه الخاصة وكاتب سيرته، فقد لفت في كلمته إلى مصطلح الحزم، وأنه لم يعمل في كل المواقف أو أن الحزم لا يصلح في كل الأحوال، ولعل ابن شداد أراد من هذا الانتقاد أن يذهب إلى ما هو أبعد من الحزم، مثل إبراز غلظته وتسلطه أو يظهر بعضا من سخطه وردة فعله إزاء ما فعله ويفعله الصليبيون بحق المسلمين آنذاك.

يستنتج من هذا الموقف أن صلاح الدين كان على صواب لأنه أخذ بالأصل وترك المحدث، فصاحب الرسالة يجتهد في تحقيقها وإن مسّه الضر، ودليل ذلك أن هذه السياسة ما زالت تذكر عند الأعداء قبل الأصحاب، أما الحرب وفصوله فقد ذهبت دون رجعة، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾ (سورة الرعد، 17).

ويظهر من خلال ذلك أنَّ المؤرخين، وأصحاب السِّير والتراجم، قد كَشفوا عَن حزمه بالروايات التاريخية، والأحداث التي كانت تَجري معه– رحمه الله تعالى– وقد جاءت دلالات الحزم والعفو واضحة في قوله وفعله، إن مَن يحمِل هذه الصفات والنُّعوتَ، فلا بدَّ أن يكون ملهما، تنصاع له العقول والأبدان، وتَهابه الأعداء، وتَحسب له الأقران ألف حساب. إنه قائدٍ مجَرِّب، مُحنك، بصيرٌ بالأمور، فلم يَأْتِ حزمُه هذا من فراغ أو مصادفة، ولا عن يَسير تَجرِبة.

3. الوفاء:

من صور الوفاء التي تناهت إلينا من سيرة صلاح الدين قصة خروج بطريارك القدس هرقليوس من القدس بعد عقد الصلح مع صلاح الدين، فقد خرج بكامل أمواله ومقتنياته والتي وصفت بكثرتها، حتى أن بعض الأمراء اعترضوا على ذلك وقصدوا أخذها منه، لكن صلاح الدين منعهم، وقال الوفاء خير وأنفع، مذكرهم بالعهد والصلح الذي صدر بينهم، حتى أنه تعامل مع البطريارك مثل أي رجل صليبي بأن دفع 10 دنانير لقاء خروجه من المدينة (الرمادي،1958، 35)، يذكر أن الكنوز التي كانت تحت يد البطريارك لو أخذها صلاح الدين لكفت دولته أو سدت بعض حاجات سُلطانه، التي كانت بأمس الحاجة لها عندما نتحدث عن دولة تحارب لعقود خلت دون كلل أو ملل، وهي حروب ترتب عليها تبعات ونفقات مالية غاية في العظم والضخامة (ابن الأثير،2006، ج10 ،157)(قلعجي،1992، 70).

إن مشهد الوفاء لم ينته ها هنا، بل له بقية يجب إتمامها، فبعد أن أتم الأمر في المدينة تفرغ لمراقبة مسيرة خروج الصليبيين وفق الشروط المذكورة بسلاسة تامة، فقد تقرر أن يدفعوا ما عليهم من التزامات ثم يظهروا خارج الأسوار ليتم تنظيمهم على هيئة ثلاث حملات، واحدة يتقدمها فرسان الداوية ، والثانية فرسان الاسبتارية والثالثة "باليان" القائد الصليبي في بيت المقدس، ثم جعل عليها جميعا حراسة شديدة ودقيقة خشية وقوع اعتداء عليهم في المناطق التي يسيطر عليها صلاح الدين، وقد كانت وجهة من خرج: بلاد صور، طرابلس وبيروت، وهي من أهم معاقل الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس بيد المسلمين، وبذلك يكون قد أبرأ ذمته وعهوده من الصليبيين في واقعة الفتح المشهود (عطية،2010، 211).

أما المروءة فمن معانيها أن تمنح دون انتظار الرد، وأن تعطي طمعا برضاء الله، وأن لا تستعلي بقوة سلطانك على من هم دونك، هذه بعض من معاني المروءة التي إن ظهرت في شخص اعلم أنه من أصحاب المكانة والسيادة في الدنيا والآخرة، لقد حمل صلاح الدين بين ضلوعه من المروءة والإقدام ما لم يحمل غيره من السلاطين في عصره، اتخذها مبدأ حياة لا يتغير وإن اختلفت المشاهد وتنوعت أطرافها، مسلم أم صليبي.

لقد جاء في خبر ذلك كثير من المواقف التي بانت مروءته للأعداء، بصرف النظر عن الحال العام الذي هم فيه، فمن كان يحضر عنده من معسكر الأعداء قادم لمسألة أعطاه مسألته، ورده وهو على أحسن حال وأطيب بال، فما أن يدخل الشخص ديار الإسلام فهو بمأمن تام حتى يخرج، ومن أمثلة ذلك، عندما زاره حاكم أنطاكيا الصليبي عام 588ه/1191م أثناء مكوثه في القدس الشريف، فكان له حاجة فمنحه إياها (ابن شداد،2017، 66)، وكذلك فعل عندما زاره حاكم صيدا الصليبي عندما كان ضارب

أطناب معسكره في الناصرة التي تقع إلى الشمال من فلسطين، فأكرمه ومنحه من الإحسان الذي جاء به الإسلام، ثم عرض عليه أن يُسلم فامتنع (ابن شداد،2017، 23).

وليس بعيدا مشهد قتل أرناط حاكم الكرك الصليبي الذي مَثُل بين يدي السلطان مع الملك والأمراء الصليبيين عندما وقعوا في قبضة السلطان بعد هزيمتهم في معركة حطين، وكان صلاح الدين قد أنذر إن تمكن من أرناط فسيقتله لأفعال خسيسة بدرت منه، منها: قطع الطريق، ونقض العهود، ومحاولة مهاجمة مكة والمدينة (ابن الأثير،2006، ج10، 142)، ومن صور المشهد الذي تم فيه الواقعة هو أنه بعد إحضارهم أمام صلاح الدين طلب الملك جفري شربة ماء فأعطاه السلطان ثم طلب أرناط ماء فناوله الملك الصليبي، أما صلاح الدين فقال أنت من أسقيته، وأنا لا أسقيه ولا أطعمه، وهذا معناه أنه لا يجار ولا مأمن له عند السلطان، هذا يفيد أن السلطان صلاح الدين ماضٍ بالبرّ في قسمه وقتل أرناط، هذا الموقف أحدث رعبا عميقا في قلب الملك "جفري" لما رأى من هول الموقف، لكن صلاح الدين هون عليه، وقال إن ذلك ما كان ليحصل إلا لأفعال ارتكبها أرناط، أما أنت فلك الأمن والأمان في معسكر المسلمين، يلحظ أن هذا الموقف حمل مشهدين متناقضين، هما الحزم وإن بلغ مبلغا عظيما من الغلظة، ثم الوفاء بالعهود وإن مسَّ المسلمين منه ضر، يذكر أنه جاء في مستهل هذه الدراسة إشارة إلى أن الاستجارة لها أشكال عديدة للأسرى منها طلب الماء (ابن شداد،52،2017)(الأصفهاني،2004 ،50).

كما ورد ذكر خبر حاكم قلعة شقيف أرنون في جنوب لبنان، كيف عامله صلاح الدين عندما قرر أن يسلم القلعة، وقد وصف ابن شداد الحوار الذي تم بينهما بأنه كان به من المودة ما يفيد السكينة والطمأنينة، ولعل من شهد ذلك الموقف قال أنه ما كان بينهما حرب، ثم أعطاه صلاح الدين ما سأل، وكان هذا الشخص تظاهر بأنه يرغب بالسكن في دمشق مع أسرته فأكرمه صلاح الدين، وكان له ما أراد، بعد أن اطمأن قلبه وسكنت جوارحه بأن مكنه من أهله أيضا (ابن شداد،2017 ،64) (الاصفهاني،2004، 154).

الغريب في هذا الموقف هو أن حاكم شقيف كان يظهر خلاف ما يبطن أي أنه كان يريد أن يجاري صلاح الدين حتى تتحسن أحواله أو تأتي النجدات له بعد وصول الحملة الصليبية الثالثة، فقد هُمس في أذن صلاح الدين بخبث حاكم شقيف، فأرسل من يتابعه ويتحرى أمره حتى تكشفت حقيقته وبَان ما كان يضمره، من خلال هذه الحادثة يظهر أن حُسن النية والتسامح التي أبداها صلاح الدين كانت في غير موضعها، ويُستنتج بأن التسامح سلاح ذو حدين، فلولا لطف الله لغدر بصلاح الدين وجنده، في ضوء ذلك علّق بعض المؤرخين بأن صلاح الدين كان يظهر قليلا من الحزم مع من لا يستحق، إلا أن مواقف كثيرة لصلاح الدين تكررت من هذا القبيل، مفادها أنه كان يقدم التسامح والمروءة على الحزم العنيف، فإذا كان سيفه بتّارا فإن لسانه أكثر بترا وأسبق منه إلى العدل(ابن شداد،2017، 69).

كما ورد موقف آخر لصلاح الدين يحاكي فيه القواعد الإنسانية في الحروب، وهي حادثة سقوط عكا بيد الصليبيين عام 1189م، فقد تعرض لموقف جلل، به من الغلظة التي لا يحتمله أحد عندما شهد والمسلمون جريمة قتل الأسرى المسلمين صبرا في موقعة عكا عند تسليمها، إلا أنه لم يفعل ذلك وترفع عنها، وتنكر لهم فيها، حيث كان بيده أسرى صليبيون ، ولو فعل مثلمهم لما أنكر عليه أحد، لأنه عامل المثل بالمثل.

وكان تقرر في اتفاق الصلح بعد هزيمة المسلمين في عكا أن يتم تبادل للأسرى بينهم، وأن يسلم صلاح الدين جماعة من الأسرى والصليب المشهور الذي غنموه في موقعة حطين، فأحضِروا وتقرر تبادل الأسرى، لكن رتشارد قلب الأسد ملك الإنجليز فاجأ الجميع وقتل الأسرى بخلاف ما تم الاتفاق عليه (الأصفهاني،2004، 52).

على الرغم من قساوة هذا الموقعة وغلظتها في القتل الفاحش لم تحرك الغرائز الحيوانية في نفس صلاح الدين من انتقام ورد فعل، لكنه أمر برد الأسرى إلى دمشق حيث المعتقل الذي كانوا فيه، هذا مع العلم أن الكتّاب والمؤرخين صوروا المشهد في معسكر المسلمين بأنه من أكدر وأبأس وأحزن ما عَرفوا، وعدوا من فاته هذا المنظر بأنه لم يعرف معنى المآسي قط، وما أعتقده أن رباطة الجأش التي يتمتع بها هذا السلطان ربما لم تصدر عن قائد بحجم صلاح الدين يوما من الأيام (الاصفهاني،2004، 278).

في المقابل كيف وصف المؤرخون العمل الذميم الصادر عن "رتشارد"، عديد من الكتّاب الذين يتصفون بالموضوعية شنعوا عليه هذا الأمر، وأنه يفتقد لأدنى معاني الإنسانية والأخلاق البشرية، وهي شريعة الغاب التي لا يعلوا فيها الشخص، وترتفع مرتبته إلا مقدار ما يحصد من أرواح بني البشر، ومنهم من قال أو أشار بأنه كان الأجدر "برتشارد" أن يلتحق بالمدرسة الأخلاقية

الصلاحية ليرى كيف كانت معاملته للصليبيين عندما دخل مدينة القدس عام1187م (الأصفهاني،2004، 278)(Stevenson P.260).

4. حفظ البيئة والأموال والأعراض:

لقد ظهر حرصه في حفظها أثناء حصاره للمدينة عندما دار نقاش بينه وبين "باليان" قائد الفرنجة في بيت المقدس الذي كان وصل معسكر صلاح الدين لعرض الصلح عليه، وذلك بعد أن أوصِدت الحلول أمام الفرنجة في ضوء تشديد الحصار عليهم من جيش صلاح الدين، كان "باليان" طلب الصلح فرفض صلاح الدين لرغبته باستسلام من في المدينة لجيش المسلمين(ابن شداد،2017، 63)، هنا "باليان" قال أنه سوف ينفذ هو وكبار العساكر والأمراء في المدينة عملية تدمير منظمة يحرقون فيها الأخضر قبل اليابس، ويلحقون دمارا كبيرا يطال الحجر والبشر والشجر والحيوان (Runciman 11p. 464)، هنا صُعق صلاح الدين من هذه الفكرة وتمالكه الاستغراب من هذا القول، كيف لشخص أن يصدر عنه هذا القول بحق أهله وبلده–هذا إن كانت بلده– فلو حقا كان ينتمي لها كوطن لما قال ذلك، وهذا يجعلنا نجزم بأن الأهداف التي خرج من أجلها "باليان" ومَن سار على دربه استعمارية بامتياز (المقريزي، 1997، 61).

أما صلاح الدين الأيوبي فقد فكر بطريقة مغايرة تماما، وقال أنه يريد البلد كما هي، ولا يريد حتى أن يحدث خرابا بها أو حربا تنتقص من حرمتها وقدسيتها، وإن كان أجبر عليها في بادئ الأمر، فهو ليس بحاجة لمدينة بهذه المكانة تكون أثراً بعد عين، فكل ما بها يحمل معاني سامية، ولها سيرة عطرة عبر العصور، ينبغي حفظها وصونها بعيدا عن كل الضغوط أو المواقف.

لقد قبل صلاح الدين بالصلح ونزل لرأي "باليان" الفرنجي علما أنه هو المهزوم، إذ كان ذروة سنام أهداف صلاح الدين من هذه الحرب تحرير بيت المقدس، ولا يوجد في نفسه أي طموح أو جموح قد يحيده عن هذا الطريق(ابن الأثير، 2006، ج10، 156) (كرد، 1925، 61).

العبرة من هذا الموقف هي أن صلاح الدين أضاف إلى قاموس الحروب معاني جديدة، منها: عدم استخدام العمارة والماديات والبنى التحتية كوسيلة حرب، وأن البيئة الاجتماعية والطبيعية موروث يجب حفظه وتجنيبه الخراب والتدمير.

5. الأسرى:

كان صلاح الدين لا يتورع عن استلطاف الأسرى وبث الطمأنينة في نفوسهم ومعاملتهم باللين والإحسان، ومن ذلك ما ورد عن مثول أحد أسرى الصليبيين بين يده، وهو بحالة من الخوف الشديد من لقائه، ولما أحضر وسئل عن أمره، قال الأسير، أني قبل هذا اللقاء كنت خائفا، أما الآن فأنا أعلم أني بخير، فرق قلب صلاح الدين، وأحسن إليه وأطلقه من سجنه دون مقابل (ابن شداد،2017 ،68).

كما وردت حادثة تفيد عدم التمثيل في القتلى، أسرى كانوا أم في ميدان الحرب، ونهى صراحة عن التمثيل مهما عظم السبب، فقد كان مَثَل بين يده أسير وهو في ساحل فلسطين، ثم أمر صلاح الدين بقتله بعد أخذ بعض المعلومات عن أحوال معسكر العدو، ثم زجر جيشه من التمثيل في جثته، ولعل سائل يسأل لماذا جاء التأكيد على هذا الأمر؟ وربما تكون الوحيدة في خبر سيرة صلاح الدين، والحقيقة أن ذلك جاء بعد حادثة قتل رتشارد قائد الصليبيين للمسلمين في عكا، الذي جمع من أسرى المسلمين ثلاثة آلاف وقتلهم جميعا أمام عكا، بعد هذا الموقف كان المسلمون إذا تمكنوا من شخص صليبي قتلوه شر قتلة، من هنا جاء موقف صلاح الدين مخاطبا الخاص ويريد العام، حتى يسير على نهجه من هم في أمرته وتحت لوائه (ابن شداد،2017، 127).

ولا يفوتنا أن نذكر أيضا من صفاته النبيلة وشمائله ما أورده بعض المؤرخين:" وكان مَن جالَسه لا يَعلم أنه جالس سلطاناً؛ لتَواضُعه ... وكان يحب سماع القرآن، شَديد الحياء، خاشع القلب، رقيق القَلب، سريع الدمعةِ."(دبابسة،2000، 158)، ولا تنطبق هذه الصفات كلُّها إلا على ذي لين ورأفة، وعَطف. وهي من النّعوت التي تؤكد لينه، وتثبتها فيه.

النتائج:

بعد تحليل أركان هذا الموضوع، فقد أينع زرعه، وبانت ثمارُ نتائجه، ومنها:

1. إن النظام الإسلامي نظام متكامل، لم يترك شارده أو واردة تتعلق بالكون بما فيه من مخلوقات إلا أحصاها، وأتى على ذكرها، وحدد من خلالها الصفة أو الطريقة المثلى التي يجب أن يسلكها الإنسان مع نفسه وبني جلدته من جهة أو مع البيئة بكل ما حوت من جهة أخرى.

2. حظيت القيم الإنسانية على مكانة رفيعة في شريعة الإسلام، فهي مقياس رئيس لكل مناحي الحياة عند المسلمين، وقد وضعت القوانين الناظمة لها بما يحقق إنسانية الإنسان في الحياة، كونه مكرم ومستخلف في هذه الأرض.
3. إن العقيدة الإسلامية بنيت على معايير واضحة أساسها كتاب الله والسنة النبوية، وهي تفيد الأدوات التي ينبغي أن يسلكها المسلمون في تعاملهم مع أعدائهم وقت الحرب، لا سيما في جزئية الأخلاق والمعاملة الحسنة، وقد جاءت واضحة ومفصلة إلى حد بعيد، لا تسمح لأحد أن يتجاوزها أو يفلت منها، هي قوانين وإرشادات ملزمة لجيش المسلمين فيما يجب عليه أن تكون الأمور أثناء الحروب، منها: كيف يحارب؟ ومَن يحارب؟ ولماذا يحارب؟ ولمن يحارب؟ أسئلة ينبغي أن تكون بيرقا سميّا على رؤوسهم حتى لا يحيد عنه أحد؛ لإيصال رسالة واضحة حاضرا ومستقبلا تظهر سماحة الإسلام ومبادئه الأخلاقية قولا وعملا.
4. أظهرت الدراسة بأن المسلمين في نوازلهم الحربية كانوا أكثر حرصا في تنفيذ التعاليم الإسلامية والأخذ بوصايا الخلفاء كما جاء في وصية أبي بكر لجيشه الذي خرج إلى الشام، حتى شكّل ذلك مرجعية للمسلمين في العصور اللاحقة، بأن ساروا على نهج المسلمين في عصر صدر الإسلام واستّنوا بسنتهم واقتفوا أثرهم؛ لاعتقادهم القاطع بأنها مدرسة ينبغي حفظ دروسها وفلسفتها وجعلها دستورا للمسلمين في كل زمان ومكان.
5. تبيّنَ أن صلاح الدين الأيوبي أكثر شخصية مسلمة يمكن أن نستشهد بها عمليا فيما يتعلق بحروب المسلمين مع أعدائهم، من حيث قضية الأخلاق والمبادئ الإسلامية وتطبيقها في وقعاته الحربية مع الخصوم، فقد كان شاهدا على العصر في جوانب عديدة من بينها موضوع هذه الدراسة.
6. حرص صلاح الدين على تنفيذ القواعد الأخلاقية الإسلامية في الحروب، إذ كان يثبّت نفسه ويقومها بل يجاهدها للانصياع لعقيدته ودينه وهجر الغرائز الجامحة ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وهذا الحرص أيضا جعله في جيشه كونه المسؤول الأول عن كل ما يصدر عن هذا الجيش من أفعال، فكان يحثهم دوما ويذكرهم بأسباب النصر الحقيقية التي يخرج فيها المسلم لمقارعة الأعداء، فكان حقا وبلا منازع الشخص المناسب الذي أحدث مشهدا حربيا فريدا يقتدى به في كل زمان ومكان.

أخيرا، لقد أرسى صلاح الدين الأيوبي قواعد ثابتة في هذا المجال لاقت مديح القريب والبعيد، وتقاطعت مع المعارض والمؤيد، وبالتالي يمكن أن تكون رؤيته للحرب شريعة للعالم في توجيه البوصلة الإنسانية ببعدها الأخلاقي الإنساني إلى مكارم الأخلاق، وهذا يفضي إلى أن القّيم الإنسانية الإلهية تحاكي الفِطرة الإنسانية بمصداقية كونها لا تحتمل خيارا آخر غير الصواب، أما المبادئ والأعراف الإنسانية الوضعية فتحتمل الخطأ والصواب لأنها صادرة عن بشر بينما القّيم الإلهية صادرة عن خالق بني البشر.

التوصيات:

1. توجيه كتابات الباحثين نحو دراسة شخصيات وقادة آخرين في التاريخ الإسلامي ممن أظهروا التزاماً بالقيم الأخلاقية في الحروب، وتوسيع نطاق البحث ليشمل مقارنة بين الأخلاق الإسلامية وأخلاقيات الحرب في الحضارات الأخرى.
2. اقتراح إدراج قصص ومواقف صلاح الدين الأيوبي وسيرته الأخلاقية في المناهج المدرسية والجامعية، لتعزيز قيم التسامح والعدل. هذا فضلا عن تشجيع إنتاج مواد إعلامية (أفلام، وثائقيات، وبرامج ثقافية) تُبرز أخلاق المسلمين في الحروب، وخاصةً نموذج صلاح الدين.
3. تقديم نموذج صلاح الدين الأيوبي كمرجع للقادة والمفاوضين في النزاعات الدولية لتعزيز الحوار السلمي والتسامح.
4. دعوة القادة وصناع القرار إلى تطبيق القيم الأخلاقية الإسلامية في إدارة النزاعات بما يحقق العدل والسلم الاجتماعي.

الهوامش:

(1) لنا في قصة وفاء معن بن زائدة مع الأسرى مثلا، إذ كان أمر غلمانه بقتل الأسرى، وقبل إنفاذ الأمر طلب الأسرى ماء وطعاما، ثم قال الأسرى: لقد أصبحنا ضيوفا عندك أيها الأمير، وفي مأمن من الغدر، هنا لم يجد معن أمامه سبيلا إلا الوفاء بعهده، ثم أطلقهم، ويذكر أن معن بن زائدة عاصر العهدين الأموي والعباسي، وله فيها من الأخبار في الكرم والوفاء ومكارم الأخلاق ما أصبح مضربا للأمثال، إذ تواترت أخباره في التراث الإسلامي على نطاق واسع (ابن عبد ربه، العقد الفردي، ج2، 44)

(2) الداوية"فرسان الهيكل": هي من أبرز الفرق العسكرية الصليبية التي لعبت دورا فاعلا في استمرار فتيل الحروب الصليبية، تأسست عام1119م على يد أحد الفرسان الفرنسيين ويدعى "هيو دي بايين"، (Runciman 11p. 157)،

(3) الاسبتارية "فرسان مستشفى القديس يوحنا": تأسست على يد بعض من تجار المدن الإيطالية قُبيل الحروب الصليبية كمنظمة ذات أهداف خيرية دينية، تعنى بشؤون الحجيج المسيحيين في بيت القدس، وما أن أصبحت الحروب الصليبية واقعا حتى أصبحت من أبرز المنظمات الداعمة والمساندة لهذه الأفكار، ثم تحولت إلى فرقة عسكرية لعبت دوراً كبيراً في تدعيم الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي (Runciman 11p. 312)

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، ع.(2006). الكامل في التاريخ. ج12، بيروت.
- ابن شداد، ب.(2017). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .
- ابن عبد ربه.أ.(2011)، العقد الفريد، مصر.
- ابن هشام،ع.(1995)، السيرة النبوية، مصر.
- أبو محسن، س. (2013). خلفاء صلاح الدين عند ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين.
- الأصفهاني، ع.(2004). الفتح القسي في الفتح القدسي.
- الألباني، م.(1988). صحيح الجامع. لبنان.
- الجرجاني، ع.(2002). التعريفات. ضبط نصوصها وعلق عليها: محمد علي أبو العباس. مكتبة القرآن، القاهرة.
- دبابسة، أ.(2000). الكرمي، مرعي بن يوسف (ت 1032 هـ/ 1622م)، نزهة الناظرين في تاريخ مَنْ ولي مصر من الخلفاء والسلاطين، تحقيق: أميرة فهمي دبابسة. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح، نابلس، فلسطين.
- الرمادي، صلاح الدين،1958، صلاح الدين الأيوبي، مصر
- شبير، م.(2004)، أحكام الأسرى في الفقه الإسلامي، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، م19 ، ع56، 211–286
- الصوري، و.(1991). الحروب الصليبية. القاهرة .
- عاشور، ع.(1963). الحركات الصليبية. ج2.
- عزام، ع.(2013). صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السُّنّيّ. ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط 2، قطر.
- العسقلاني، ا. (1389هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. ج13.
- عطية، ع.(2010). تاريخ الحروب الصليبية. مكتبة المهتدين.
- العويسي، ع.(2020). النموذج المعرفي للناصر صلاح الدين الايوبي لتحرير الأرض المقدسة من الاحتلال الصليبي، كأداة تحليلية لفهم وتفسير وإدراك واقعنا المعاصر. مجلة دراسات بيت المقدس،ع20 ، 353–367.
- كرد، م.(1925). خطط الشام.
- المقريزي، أ.(ت 845هـ/ 1441م). السلوك لمعرفة دُول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية، ط1 بيروت، 1997م
- النيسابوري، م.(1991). صحيح مسلم. لبنان.
- الهندي، ع.(1981). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال.
- الواقدي، م.(1997). كتاب الشام. لبنان.
- يعقوب، ا.(2016)، المعجم المفصل في الجموع، بيروت .

References

- Holly Quran.
- Abu Mohsen, Samir Hussein. (2013). The Successors of Salah al-Din according to Ibn Wasil in his book "Mufarrij al-Kurub fi Akhbar Bani Ayyub." Unpublished Master's Thesis, Islamic University, Gaza, Palestine (In Aarabic).
- Al-Albani, Muhammad Nasir al-Din. (1988). Sahih al-Jami. (In Aarabic) Lebanon.
- Al-Asfahani, Imad al-Din Muhammad. (2004). Al-Fath al-Qussi fi al-Fath al-Qudsi. (In Aarabic).
- Al-Hindi, Ali bin Husam al-Shadhili. (1981). Kanz al-Ummal fi Sunan al-Aqwal wal-Af'al.

- Al-Jurjani, Ali bin Muhammad. (2002). Definitions. Edited and annotated by: Muhammad Ali Abu al-Abbas, (In Aarabic) Quran Library, Cairo.
- Al-Maqrizi, Ahmad bin Ali (d. 845 AH / 1441 AD). (1997). Al-Suluk li Ma'rifat Duwal al-Muluk. Edited by: Muhammad Abdul Qadir Atta, (In Aarabic) Dar al-Kutub al-Ilmiyya, 1st ed., Beirut.
- Al-Nisaburi, Muslim bin Al-Hajjaj. (1991). Sahih Muslim. (In Aarabic) Lebanon.
- Al-Owaisi, Abdel-Fattah. (2020). The Epistemological Model of Saladin for Liberating the Holy Land from Crusader Occupation as an Analytical Tool to Understand and Interpret Our Contemporary Reality. (In Aarabic) Journal of Jerusalem Studies, Issue 20, pp. 353-367.
- Al-Ramadi, Salah al-Din, 1958, Salah al-Din al-Ayyubi, (In Aarabic) Egypt .
- Al-Suri, William. (1991). The Crusades. (In Aarabic) Cairo.
- Al-Waqidi, Muhammad bin Umar. (1997). Kitab al-Sham. (In Aarabic) Lebanon.
- Ashour, Abdel-Fattah. (1963). The Crusader Movements, (In Aarabic) Vol. 2.
- Atiya, Ali Saud. (2010). History of the Crusades. (In Aarabic) Al-Muhtadeen Library.
- Azzam, Abdel-Rahman. (2013). Saladin and the Revival of Sunni. (In Aarabic) Translated by: Qasim Abdo Qasim, 2nd ed., Qatar.
- Dababseh, Ameera Fahmy. (2000). Al-Karmi, Mar'i bin Yusuf (d. 1032 AH / 1622 AD), "Nuzhat al-Nazirin fi Tarikh Man Waliy Misr min al-Khulafa' wal-Salatins," (In Aarabic) (Unpublished Master's Thesis), An-Najah National University, Nablus, Palestine.
- Ibn Abd Rabbih (2011) Al-Andalusi, "The Unique Necklace" (In Aarabic) Egypt.
- Ibn al-Athir, Izz al-Din Ali al-Jazari. (2006). Al-Kamil fi al-Tarikh (The Complete History) (In Aarabic), Vol. 12, Beirut.
- Ibn Hajar al-Asqalani. (1389 AH). Fath al-Bari bi Sharh Sahih al-Bukhari, (In Aarabic) Vol. 13.
- Ibn Hisham, (1995).Abdul Rahman bin Abdullah, "The Prophetic Biography" (In Aarabic).
- Ibn Shaddad, Judge Baha al-Din. (2017). Al-Nawadir al-Sultaniya wa al-Mahasin al-Yusifiya (In Aarabic).
- Kurd, Muhammad Ali. (1925). Plans of Syria (In Aarabic).
- Marzouk, Muhammad Abd and Ibrahim, Dina Ibrahim. (2023). The Personality of Saladin in Confronting the Crusaders. (In Aarabic) Medad Al-Adab Journal, Iraqi University, Vol. 30, pp. 297-332.
- Runciman,Steven, A History of Crusades, University of Pennsylvania .Press 1968
- Shabeer, Mohammad Othman, (2004)"The Rulings of Prisoners of War in Islamic(In Aarabic) Jurisprudence. Journal of Sharia and Islamic Studies, Volume 19, Issue 56, pp. 211-286
- Stevenson, (1968).The Crusades in East, Beirut.
- Yacoub, Emile Badi,(2016) "The Detailed Dictionary of Plurals" (In Aarabic) Beirut,